بحث مقدم

من

الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

خطيب المسجد الأقصى المبارك

رئيس مجلس الإفتاء الأعلى

بعنوان

"التعاون بين العالم الإسلامي وروسيا الاتحادية رؤية شرعية وواقعية "

إلى

المؤتمر العالمي

" روسيا والعالم الإسلامي: شركاء من أجل الاستقرار"

موسكو - روسيا

5 شوال 1430هـ

24 أيلول 2009م

الفهرس

التمهيد

الإنسان مخلوق اجتماعي ، لا يمكنه أن يعيش منفردا ولا أن يحصل حاجاته مستكفيا بذاته عن أبناء جنسه ، هكذا خلق الله الإنسان وهكذا أودع فيه من الغرائز والحاجات ما لا يتفق للفرد أن يسده إلا بالعيش المشترك والتعاون الوثيق مع الآخرين ، وهذا التعاون يقتضي الاحتكاك والتشارك مع الغير في الموطن والموارد الطبيعية وهذا ما نتج عنه الاحتكاكات والمشاحنات بين أفراد البشر ومجموعاتهم على ما فيهم من تباين واختلاف في المظهر والمخبر ، فهم ألوان من البشر ما بين الأبيض والأسود وهم أصناف من الناس ما بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق في الخيرات.

وتباين الناس وتمايزهم ما بين الخير والشر كائن رغم أن الله تعالى لم يترك ذلك الإنسان الخليفة لوحده دون دليل ، بل تكرم عليه بالهداية الربانية عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية ، فتوالت الأمم ولكل منها رسول مبلغ قال تعالى : " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ " [1]. و كان مسك ختامهم ومتمم بنيان مكارمهم محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم حيث أنزل عليه سبحانه وتعالى آخر الكتب السماوية ، فبلغ كتاب الله وبينه.

ومن أهم ميزات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أنها الرسالة الخاتمة التي جاءت لتؤكد ما نزل قبلها من الدين ولتيسر على المؤمنين في الشريعة العملية، فكانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عالمية القيم موجهة لكافة الناس دون تمييز بينهم في البلاغ ولا تحديد على أحد منهم في المعرفة ولا تفضيل لأحد منهم في المكانة ولا تفريق بينهم بالعرق أو اللون أو اللغة، قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "[2] وقال تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ "[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: " بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ " [4].

[1] سورة فاطر ، آية : 14
[2] - سبأ، آية 28
[3] سورة الأنبياء ، آية: 107.
[4] مسند أحمد ، حيث أبي موسى الأشعري .

ومن هنا بدأ الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه دعوته الحنيفية السمحة لكافة الناس فكانت تتسم بالدعوة إلى جملة من القيم التي تتصف بالعالمية والإنسانية بامتياز، فالقرآن الكريم الذي أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام تتصف آياته بأنها واضحة مفصلة في العقيدة مجملة عامة في أكثر الأحكام العملية،وهذا أعطى مرونة كبيرة للفقه الإسلامي، وهو أسلوب يجعل للعقل مجالاً رحباً في أحكامه، فتعاليم القرآن الكريم تتوافق مع فطرة الإنسان ولا تتنكر لحاجاته الغريزية ، ولذلك انتشر الإسلام بسرعة كبيرة ، حتى طال معظم بقاع المعمورة في سنين قليلة من بدء الدعوة الإسلامية ، وكان مبتدأ وصول الإسلام للأراضي الروسية مبكراً.[1]

والناظر إلى واقع المسلمين اليوم في كل أقطار المعمورة وواقع الدولة الروسية الحديثة يرى بوضوح أن من مصلحة الجانبين زيادة التعاون بينهما وتوثيقه في كل المجالات، ومناقشة أسس ذلك التعاون من الناحية الشرعية الإسلامية ومن الناحية الواقعية العملية وفوائده المرجو عودتُها على الطرفين هي المحاور الرئيسة لهذا البحث .

[1] وصل الإسلام إلى روسيا حوالي سنة 40 هـ حيث وصلت جيوش المسلمين إلى مدينة دربند في جنوب جمهورية داغستان . أنظر : حوار مع الأستاذ محمد هني : مدير المركز الإسلامي الثقافي في سان بطرسبرغ بروسيا بعنوان : هل يعيش مسلمو روسيا عصرهم الذهبي :
http://www.islamonline.net/livedialogue/arabic/Browse.asp?hGuestID=151kJ2

الأسس الشرعية لتعاون المسلمين فيما بينهم ومع الآخرين

إن مبدأ التعاون في الإسلام لا يستفاد من دليل سمعي واحد، بل من مجموعة متنوعة من الأدلة الشرعية التي ترسم معالم المنهج الإسلامي المتميز في نظرته للإنسان، والتي تضعه في مرتبة الخلافة في الأرض قال تعالى : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً "[1]. وهذه الخلافة التي يتحدث عنها الخالق سبحانه وتعالى تعتبر تشريفاً للإنسان وتكليفا له في الوقت ذاته ، فهي تشريف للإنسان لأن خلافته في الأرض اقتضت أن يكرم ويفضل على باقي المخلوقات، قال تعالى : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً "[2]

واقتضت كذلك أن يسخر لمصلحة الإنسان كل ما في الكون : قال تعالى : " هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً "[3] ،و قال تعالى : " أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ "[4] ، وقال تعالى : وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ "[5]. والمقصود بتسخير ما في السماوات والأرض للإنسان أن تكون كل الأشياء في هذا الوجود مجالا لحواس الإنسان ولفكره حتى يتفاعل معها ويتحكم بها فيصنع منها ما يفيد.

فالخلافة إذا مسؤولية تقتضى إلى جانب التشريف والتكريم تكليفا وتبعات، من أهمها؛ المحافظة على النفس بالإبقاء على حياتها، والمحافظة على المجتمع، بالإبقاء على تماسكه وقوته ، والحفاظ على البشرية برعاية حقوق الأخوة الإنسانية والإبقاء على كرامة الإنسان ، والضمان الضابط لأداء كل تلك المسؤوليات بأمانة هو العدل الذي أمر الله تعالى بإقامته في الحياة، قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[6]، وتلك المسؤوليات المطلوب من الإنسان إنجازها، إما أن تكون مسؤوليات فردية أو جماعية، فيما يعرف في الفقه الإسلامي بالواجب العيني، والواجب الكفائي.

---

[1] سورة البقرة ، آية : 30.
[2] سورة الإسراء، آية : 30.
[3] سورة البقرة ، آية 29.
[4] سورة لقمان ، آية : 20.
[5] سورة الجاثية ، آية 20.
[6] سورة النحل، آية: 90.

أما المسؤوليات الفردية ويعبر عنها بالواجب العيني ، ويقصد بها ما يتوجه الخطاب فيه بالطلب إلى كل إنسان بعينه ـ فالمقصود بها ما اندرج تحته أفراد البشر من أوامر ونواهٍ مطلوبٌ أداؤها من نفس الفرد المكلف، فهي تكاليف شخصية لا عامة، ونفعها يعود لذوات الأفراد المكلفين في المقام الأول، وإن كانت لا تخلو من مصلحة للأمة أو للبشرية بالتبع ، كالصلاة فإنها واجب عيني مخاطب به كل مسلم مكلف والمصلحة فيه في المقام الأول تعود على المصلي نفسه، فهو يرضي ربه ويُغفر له ذنبه، بيد أن في الصلاة مصلحة لباقي الناس من ناحية كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر بما يفيد المجتمع في النهاية وأيضا فإن فيها مصلحة لكل عباد الله الصالحين بالدعاء لهم بالسلام .

أما الواجبات الكفائية، فالمقصود بها تلك الواجبات المتعلقة بالحياة العامة المختصة بمصلحة الغير أو المجتمع أو الأمة أو الإنسانية أو الكون المسخر للإنسان ، وهذه واجبات يقصد بها أداء المسؤوليات الجماعية التي لا يتاح لفرد أو لمجموعة قليلة من الأفراد أداؤها، فطلبها الله سبحانه وتعالى من الأمة مجتمعة بحيث إنها إذا قام بأدائها البعض سقط الواجب عن الآخرين ، وفاز بالفضل أصحابه المبادرون إليه ، وإذا لم يقم بها أحد وقعت التبعة على أفراد الأمة جميعهم، وعدوا كلهم مقصرين آثمين مسئولين أمام رب العالمين عن تلك الواجبات، والتي من أمثلتها مما يعود على الغير: إطعام المسكين ، ومساعدة الملهوف، والصلاة على الميت وتكفينه ودفنه،... ومن أمثلتها فيما يعود على المجتمع ككل: نشر التعليم المفيد بكل أصنافه الدينية والدنيوية والنظرية والمادية، وتوفر المستشفيات عالية الكفاءة، ونشر الأمن في المجتمع عن طريق سن القوانين وإيقاع العقوبات وردع المعتدين .. ومن أمثلتها العائدة على الأمة: إيصال الثقافة الدينية الصحيحة لكل الشعوب، والتضامن بين المسلمين ومساعدة بعضهم بعضاً عند اللزوم، وتوضيح الصورة الصحيحة للإسلام لسد الباب أمام الجاهلين والكارهين ... ومن أمثلتها العائدة على الإنسانية جمعاء، نشر العدل والمساواة بين كل الناس باعتبارهم أهل الإنسانية المكرمة، وتبليغ الناس دين الله تعالى، واستكشاف كل ما خلقه الله تعالى لمصلحة الإنسان في هذا الوجود الفسيح، ومن أمثلتها العائدة على الكون: الحفاظ على الأرض والهواء وكل ما خلق الله بعدم الإفساد أو التخريب، والتعامل مع الموارد الطبيعية بصفة المؤتمن الأمين عليها.

فيظهر جلياً مما سبق أن التعاون فريضة على المؤمنين وواجب محتم عليهم، تجاه مسؤولياتهم العظيمة، ولا يختص ذلك بمجال في الحياة دون سواه , والدليل قوله تعالى : "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ "[1] .

وإن ما تتضمنه الآية الكريمة من الأمر بالتعاون على البر والتقوى لا يكون بين المؤمنين فقط، بل بينهم وبين كل من هو مستعد لذلك من أبناء الجنس البشري، وهذه فريضة شرعية إسلامية تقوم على جملة من الأسس والقواعد الدينية؛ أولاها الكرامة الإنسانية التي قررها الله تعالى لهذا المخلوق قال تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " [2]،ومن دواعي ذلك التكريم امتنان الله على الإنسان بأحسن صورة في الخلق: " لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ "[3]، وبعد ذلك كان أن نفخ فيه من روحه قال تعالى عن خلق الإنسان:" ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ "[4] ، فأصبح ذلك البشر المخلوق من طين متمتعا بالقدرة على التأدب بصفات الخالق سبحانه ، وهذا هو المفهوم من حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن لله تسعة وتسعين اسما. مائة إلا واحداً. من أحصاها دخل الجنة"[5] ، وإحصاؤها أن يأخذ من كل اسم منها بنصيب من التأدب والعمل بمدلوله.

وإن الإيمان بتساوي الناس في الكرامة وعدم وجود جنس بشري يفضل جنساً آخر كفيل بإزالة أي معيق لتعاون الناس فيما بينهم، وما أحوج البشرية التي أرهقتها العنصرية والكراهية والإرهاب إلى الإيمان بهذه القيمة القرآنية العظيمة.

ومن المبادئ الإسلامية التي تفرض التعاون مع الغير؛ إقامة العدل في الأرض واعتباره قيمة مطلقة ومعيارا لسلوك الفرد المؤمن، ولنزاهة أسلوب الحكم في المجتمع المسلم، فذلك المبدأ

[1] سورة المائدة ، آية: 2.
[2] سورة الإسراء ، آية: 2.
[3] سورة التين، آية : 4.
[4] سورة السجدة ، الآيات 1-6 .
[5] صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها .

ينبع من النظرة الإسلامية التي تساوي بين الناس اجتماعياً [1] فتحقق العدل بينهم، وهذا يعد ضمانة لزرع دواعي التعاون الحثيث مع الآخرين ذلك أن الخالق سبحانه وتعالى منزه عن التحيز لأي مخلوق قال تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " [2] ، وقال صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى " إن أكرمكم عند الله أتقاكم }، ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : فيبلغ الشاهد الغائب " [3]، فالتماثل التام بين الناس في القيمة والاحترام والمكانة والحُرمة من تعالم الإسلام الأساسية ، وهي قيم عالمية تؤسس لنشر التسامح بين الناس وتعين على تقاربهم وتعاونهم لمصلحة البشرية جمعاء.

إن الظلم من أشد ما يشقي البشر ويفتت العلاقات بينهم ويزرع بذور الكراهية والإرهاب، ولذا كان الظلم من أشد ما نهى عنه الله تعالى وحرمه ومنعه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي قال الله تعالى: " يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا " [4]، وأيضا يستفاد هذا المبدأ من سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أبرم المعاهدات مع من يحاربونه وشدد على وجوب رعايتها واحترامها امتثالا لأوامر الله تعالى القائل : { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [5] ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن الغدر، أخرج البخاري ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ" " سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ " لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُنْصَبُ لِغَدْرَتِهِ "[6].

ومن الأسس الأخرى التي يقوم عليها التعاون في الإسلام، السلم: فالسلم هو الحالة الأصلية في الإسلام والحرب أمر طارئ يكون في ظروف خاصة ولأسباب دفاعية مشروعة، فإن

[1] كان المستشرق الفرنسي لويس ما سنيون يسمي الإسلام على الصعيد الاجتماعي :" حكومة المساواة الإلهية " أنظر : شوقي أبو خليل ، التسامح في الإسلام المبدأ والتطبيق صفحة : 123 دار الفطر المعاصر ط1 1993م .
[2] سورة الحجرات ، آية : 13.
[3] محمد ناصر الدين الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد السادس ، صفحة : 449 ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع بالرياض الطبعة الأولى .
[4] صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب، باب : تحريم الظلم .
[5] سورة النحل ، آية: 91.
[6] صحيح البخاري ، كتاب الجزية ، باب إثم الغَادِرِ لِلبَرِّ وَالفَاجِرِ .

زالت تلك الأسباب لم يعد للحرب مبرر، قال تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [1] .

ويمثل الإحسان قاعدة ذهبية من قواعد السلوك العام في الشريعة الإسلامية، فالإحسان أن يقدم الإنسان الخير جهد طاقته، لا عن جزاء عاجل ينتظره ولا لثمن يسعى لتحصيله، بل لأنها أمر من الله الخالق الحكيم، ومن حكمة ذلك أن من يسعد الآخرين ويسعى في حاجاتهم تدخل السعادة قلبه ويحسها بين جنبيه ويسهل الله له حاجاته كما سهل هو لغيره ، يقول سبحانه وتعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [2]، والإحسان هو الطريقة الواجب معاملة كل واحد وكل شيء بها قال صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ } [3] .

ومن أسس التعاون كذلك حرمة الإضرار بالغير، فعن أبي سعيد سعد بن سنان الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : {لا ضرر ولا ضرار } [4] .

آلية تفعيل التعاون

كل ما سبق يعد من الأسس التي ينبني عليها فقه التعاون على الخير مع جميع البشر في الدين الإسلامي، بيد أن ذلك التعاون يتطلب طريقة ديناميكية تترجم المبدأ إلى منجزات ملموسة في الواقع العملي الذي يكون بين الناس، ووسيلة ذلك استخدام مبدأين عظيمين من مبادئ الإسلام: احترام الحرية الشخصية واعتماد الحوار وسيلة شرعية وحضارية وإنسانية للتواصل.بين الشعوب والأفراد.

---
[1] سورة البقرة، آية: 190.
[2] سورة النحل، آية: 90.
[3] صحيح مسلم ، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان ، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة.
[4] سنن ابن ماجة، كتاب الأحكام، باب من بني في حقه ما يضر بجاره

ضرورة احترام الحريات

إن الحرية هي أهم مقتضيات خلافة الإنسان في الأرض، ومعناها القدرة على الاختيار الحر بين الأفعال في شتى المجالات الإنسانية مع تحمل تبعات الاختيار، وتكمن أهمية الحرية في كونها البيئة اللازمة لتمكين العقل الإنساني من أداء دوره في التفكير والاستكشاف والاستنتاج والموازنة والاختيار ، فالعقل هو ميزة الإنسان عن باقي الحيوانات وذلك هو مناط تكليفه بمسؤولية الخلافة في الأرض.

و بناءً على ما سبق فإن ازدهار الإنسانية وحسن تعايش الأمم يكون بمقدار ما ترعى حرية الأفراد والجماعات في اختيارهم أسلوب الحياة الذي يريدون، شريطة أن تقف حريتهم عند حدود حريات الآخرين ، حتى لا يخسر أحد إنسانيته ولتبقى أركان التعايش السلمي قائمة .

فالتواصل بين الناس ونقل تجاربهم بعضهم إلى بعض ، فضلاً عن كونه ضرورة واقعية لرعاية مصالح الناس فإنه في نظر الإسلام واجب شرعي ، بل وأكثر من ذلك ، فهو العلة الغائية التي من أجلها جعل الله تعالى الناس شعوباً وقبائل قال تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " [1]، فالله سبحانه وتعالى جعل الغاية من الاختلاف بين الشعوب أن يتعرف بعضهم على بعض فيتلاقوا ويتناصحوا وعندها يأخذ بعضهم من بعض العلوم والعادات والأفكار والإبداعات المفيدة المتنوعة، هذه حكمة الله وفي طيها اختبار منه سبحانه لعباده وابتلاء، حيث يؤكد الحق سبحانه عطفاً على الأمر بالتعارف قاعدة التفاضل بين الخلق ، ألا وهي تقوى الله، ومضمون التقوى هو السلوك القويم الذي يتحمل صاحبه المسؤوليات ولا يتهرب من التبعات ويعطي كل أصحاب الحقوق حقوقهم.

[1] سورة الحجرات، آية: 13.

أهمية نشر ثقافة الحوار بين البشر

إن الطريقة المثلى لتواصل الناس بعضهم مع بعض هو الحوار، الذي أمر الله به، والحوار يتضمن عرض الرأي وقبول سماع الرأي الآخر بحرية كاملة ، وهذا مبدأ سام رسخه الإسلام ، حيث أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم بتبليغ الدعوة ومجادلة الناس بالتي هي أحسن، قال تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[1] وعلمه سبحانه وتعالى طريقة الإنصاف في الحوار حيث يقول سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }[2]، وهذا إنصاف عظيم وتعليم لطريقة في البلاغ حكيمة؛ حيث لا يفيد المُحق أن يناقش الآخر من زاوية أنه صاحب الحق والآخر صاحب الباطل، حتى ولو كان الواقع هكذا أو على الأقل هكذا يعتقد في نفسه، — وكل عند نفسه محق ـ ، بل إن النقاش يتضمن التسامح مع الآخر وقبول دراسة احتمال أن يكون هو المحق، حتى ولو كان البحث في أمور تمس صلب العقيدة والدين، وهذه طريقة إنسانية تفتح القلوب وتقنع العقول وتقيم الحجة وتلزم التَبعات ، وتحترم كرامة الإنسان وتحفظ حريته وترعى منزلته.

المسلمون في البلاد الروسية

ما سبق يوصلنا للحديث عن المجتمع في الاتحاد الروسي، الذي يشكل المسلمون جزءاً كبيراً من نسيجه الاجتماعي، المجتمع الروسي شديد التنوع القومي والديني واللغوي؛ فروسيا تتكون من 160 شعباً وقومية ، يتكلمون مائة لغة[3] ، وفيها ما يزيد عن خمسين طائفة دينية[4]. والمسلمون إحدى تلك الطوائف ويشكل الإسلام الدين الثاني في روسيا من حيث عدد معتنقيه،

---

[1] ـ سورة النحل، آية:125.
[2] سورة سبأ ، آية: 24.
[3] أنظر حوار مع الأستاذ محمد هني : مدير المركز الاسلامي الثقافي في سان بطرسبرغ بروسيا بعنوان : هل يعيش مسلمو روسيا عصرهم الذهبي :
http://www.islamonline.net/livedialogue/arabic/Browse.asp?hGuestID=151kJ2
[4] خطاب الرئيس الروسي دميتري مدفيديف في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة بتاريخ 23 يونيو/حزيران عام 2009 أنظر : http://www.rtarabic.com/news_all_news/30946

فعدد المسلمون يبلغ عشرون مليون نسمة [1]،يتوزعون على عدد من الجمهوريات والكيانات المحلية الروسية وهم في بعضها أغلبية أو أغلبية كبيرة كبيرة .

ويحتاج المسلمين الروس للتواصل مع أمتهم الإسلامية الذين هم جزء مهم من نسيجها، ويقابل ذلك مصلحة الأمة في تطوير ومأسسة التعاون مع المسلمين في روسيا لما لهم ولدولتهم من اثر كبير على الصعيد العالمي، وفي المقابل فإن تعاون روسيا مع العالم الإسلامي يفيد مصالحها الإستراتيجية.

ومما لا يغيب عنا عراقة الإسلام في روسيا وعراقة هذه الدولة المهيبة ، حيث كان دخول الدين الإسلامي الحنيف بعض أقاليمها في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وما زال الإسلام في روسيا موجوداً ومنتشراً في هذه البلاد الرحبة حتى هذا العصر حيث تشهد روسيا نهضة قوية، وحيث يعيش المسلمون فيها نهوضاً مباركاً .

فروسيا بلد عظيم المكانة والإمكانيات، عريق التاريخ، واعد المستقبل، أما عن المكانة فهي نتاج تجمع العوامل الأخرى، فمكانة الدولة تكون بإمكانياتها الحاضرة وفي إسهاماتها التاريخية في بناء حضارة الإنسان، وفي مستقبلها المتوقع بناء على وجودها في خط صعود أو هبوط، وروسيا ذات جدارة في كل ذلك .

أما عن الإمكانيات، فروسيا شاسعة الأراضي، غنية بالموارد الطبيعية، متنوعة الأعراق بشكل كبير جدا، مزدهرة في الصناعة والتجارة وغيرها، وأهم من كل ذلك أن شعبها يتصف بالازدهار الثقافي والمعرفي ، وتاريخ روسيا يمثل مجالا للفخر في إسهاماتها الجليلة في ركب تطور حضارة الإنسان ، وبالتالي فهي في نمو وصعود، هذه هي روسيا اليوم والتي يشكل فيها المسلمون نسبة كبيرة من السكان.

[1] خطاب الرئيس الروسي دميتري مدفيديف في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة بتاريخ 23 يونيو/حزيران عام 2009
أنظر : http://www.rtarabic.com/news_all_news/30946

أوضاع المسلمين في روسيا ورؤية نحو التواصل معهم

أما عن واقع حال المسلمين الروس، وأوضاعهم فهي بحمد الله تعالى في تطور وتحسن مطرد، فهناك ظاهرة عودة المسلمين للالتزام بأحكام الإسلام السمحة، وأيضاً يشكل الدخول في الإسلام ظاهرة ملحوظة في روسيا كما في سائر العالم الحر وهذه عبرة لنا نحن المسلمون في كل العالم بضرورة وفائدة نشر قيم الحرية الحقيقية ، بالإضافة طبعاً إلى كونها أمراً ربانياً.

فوضع المسلمين في روسيا وهي تنعم الآن بالحرية الدينية مما تُقِرُ بأخباره المتحسنة باطراد عيون إخوانهم في شتى بقاع الأرض، ومن تجليات ذلك هذا الاجتماع المبارك الذي نتدارس فيه تطوير التعاون وتنظيمه لمصلحة الجميع مسلمين وغير مسلمين.

وهذا يدفعنا لإعمال الفكر في كل وسيلة ممكن لنا إتباعها لنحقق المزيد من التضامن الواجب والضروري، وسأركز في باقي البحث على المجالات التي يمكن تفعيل وتطوير التبادل المعرفي والثقافي فيها بيننا في الأرض المقدسة –فلسطين- وبين إخواننا المسلمين في روسيا.

القدس والمسلمين في روسيا

لقد أصبحت روسيا عضوا مراقباً في منظمة المؤتمر الإسلامي منذ العام 2005م، ومعلوم أن إنشاء تلك المنظمة التي هي ثاني أكبر منظمة دولية عالمية بعد الأمم المتحدة، كان بسبب الاعتداء الآثم على أولى القبلتين وثالث الحرمين ،المسجد الأقصى المبارك عام 1969م، وذلك بقرار صادر عن القمة التاريخية التي عقدت في الرباط بالمملكة المغربية يوم 12 رجب 1398 هجرية (الموافق 25 سبتمبر 1969) ردا على جريمة إحراق المسجد الأقصى في القدس المحتلة، وينص ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي في المادة الحادية والعشرين منه على أن مدينة القدس الشريف هي المقر الدائم للمنظمة بعد تحريرها.

فالقدس التي هي أولى القبلتين وثالث الحرمين، تدعو المسلمين في كل مكان إلى المزيد والمزيد من التضامن والتوحد والتعاون مع بعضهم البعض ومع كل أصدقائهم لإقامة التوازن العالمي المطلوب، وللدفاع عن الحقوق المسلوبة، ولا شك أن لروسيا المزدهرة والمؤثرة الدور الكبير في إقامة التوازن العالمي وفي المساعدة على استرجاع الحقوق لأصحابها في القدس.

ولذلك فالرقي بأوضاع مجتمع المسلمين في روسيا مهم لمصالح المسلمين هناك في الدارين؛ في الدنيا لرعاية ازدهارهم وتطوير مساهماتهم وتحسين مكانتهم ، وفي الآخرة لنجاتهم وفلاحهم ، ومن لم يعش في الدنيا نشيطاً متفاعلا مع المجتمع ومشاكله، فهو على خطر في الآخرة، لأن الدنيا مزرعة الآخرة، فمن أحسن الزرع في الدنيا فرح عند القطاف في الآخرة، والعكس صحيح.

وذلك التطور مهم بالطبع للمجتمع الروسي ككل لأن المسلمين شريحة كبيرة وعريقة في نسيج المجتمع الروسي، فتطور إسهامات المسلمين في مجتمعهم الروسي يزيد ذلك المجتمع تقدماً وازدهارا ، وتوثيق علاقات المسلمين الروس بإخوانهم المسلمين في العالم الإسلامي يزيد من التفاعل الإيجابي بين روسيا والعالم الإسلامي لمصلحة الجانبين.

ولا يمكننا في هذا السياق أن نغفل تميز وتفرد وشائج الصلة الثقافية والإنسانية بين الحضارة الروسية والحضارة الإسلامية ، فأعظم أدباء روسيا ألكسندر بوشكين تأثر كثيراً بالقرآن الكريم وأعجب بشدة بشخصية رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام. ومن جانب آخر فأعمال الأدباء الروس لها حضور كبير في وجدان الشعوب المسلمة، مثل غوغول ومكسيم غوركي و ديستوفيسكي وغيرهم [1].

فمن المهم للمسلمين في العالم أجمع وفي القدس وأكنافها على وجه الخصوص، الوصول إلى مرحلة التضامن بيننا وبين روسيا الاتحادية، ولتحقيق ذلك لا بد من وضوح الرؤية وتحديد الأهداف القريبة والبعيدة واعتماد الأدوات والوسائل المساعدة على ذلك، وهذا ما نرجو التقدم باتجاهه في هذا المؤتمر الجليل.

[1] خطاب القرآن في شعر الرواد الروس ، د. ناظم الديراوي ، *www.alarabiya.net/views/2009/02/21/66936.html*

فالرؤية التي نتطلع إلى تحقيقها من قبل جميع المسلمين تتضمن؛ بث روح التعاون والتضامن بين المسلمين، وعرض الإسلام الحنيف لمختلف شعوب العالم، ونشر فقه التعاون والإتلاف بين المسلمين وغيرهم وتوضيح تسامح الإسلام وقبوله للآخر، التأكيد على عالمية الإسلام .

ومن أوجه ذلك التعاون المطلوب كخطوة أولى نحو بناء جسور التواصل:

- تبادل الخبرات والكفاءات التعليمية والتثقيفية والإرشادية .
- زيادة التوعية الدينية عن طريق تبادل الكتب والمجلات والنشرات التوعوية والإصلاحية.
- تنشيط العلاقات الرسمية والشعبية عن طريق تنظيم زيارات متبادلة.

التشارك في تنظيم النشاطات الموسمية الدينية كالأعياد والحج وغيرها، وأيضاً النشاطات الحياتية العامة كالمشاركة في الفعاليات الوطنية المتبادلة مما يوثق الروابط ويزيد اللحمة.

كلمة أخيرة

إن التعاون على تحقيق مصالح الإنسان فريضة شرعية وواجب وطني وإنساني، وكثير من عوائق ذلك مرده إما الجهل بحقيقة دين الله الذي هو فضل من الله تعالى لتحقيق منافع الإنسان وتصحيح أوضاعه، ورفع المعاناة عنه, أو بسبب الجهل بفوائد التعاون مع الآخرين والتشاور معهم وتقديم المساعدة لمن يحتاجها، وطلب العون ممن يقدر عليه، والجهل دواءه التعلم، فعلينا أن نبدأ من قاعدة العلم لتحقيق التضامن مع أنفسنا والتعاون مع الأصدقاء، والروس من أوثقهم صداقة لنا

وإن مما نرجوه في هذا اللقاء أن نتقدم عملياً إلى الأمام في طريق التبادل الثقافي والمعرفي، لأنه يشكل القاعدة المؤسسة للتعاون في شتى المجالات الحياتية، ومن هنا كان التركيز على توضيح فقه التعاون والتآلف، وبيان أصالته في الإسلام، مما يجعله فريضة ، وواجب على الأمة تدارك التقصير فيها بالعمل الحثيث على تحقيقها.

و التعاون وإن كان طويلاً، و لكنه ضروري ومفيد ، وقد أعان الله تعالى الفرد المسلم على ذلك ورتب له الأجر العظيم إن فرج عن معسر أو ساعد محتاجاً ، بل وجعل له الأجر العظيم إن تذكر إخوانه المسلمين بالدعاء ، فاللهم وحد كلمة المسلمين وأصلح ذات بينهم ، واهديهم إلى صراطك المستقيم.